# العنقاء

## بين فكر العرب .. وفكر الإغريق والرومان

بقلم

الدكتور سيـــد أحمد على الناصرى

مدرس التاريخ والحضارة

اليونانيـــة الرمانية

بكلية الآداب — جامعة القاهرة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لايعرف العالم موضوعاً شغل خيال العديد من شعوبه مثل العنقاء ، ذلك الطائر الخرافي الذي تناوله كل شعب بالخيال والتعبير — طريقة يمكن أن تفيد في التعرف على نفسيات هـــذه الشعوب وعلى عقلاياتها المتميزة إذا مادرسناها بالتحليل ، أنها فرصة نادرة أمام الدارسين أن يجدوا موضوعاً خيالياً واحداً تتناوله شعوب مختلفة العنصر والفـكر والحضارة ويفصل بينها عصور وأزمنة مختلفة .

كان المصريون أول من صاغ الأسطورة فـكراً وصورة كما سنرى فيما بعد ، إذ عرفوا العنقاء بإسم « بنو » Bnu ويرجح العالم الـكبير الدكتور أحمـد بدى أن هذا الاسم مشتق من الفعل المصرى القـــديم Wbn أى يشرق أو يبرق أو يتوهج ويكون معنى الاسم إذا البراق أو الوهاج ، ومن هنـا جاءت الصلة بين إسم الطائر وبين الحجر الهرمى المعروف بإسم بن بن bn bn والذى رمز به المصريون إلى التل العتيق الذى برز منه الماء الأزلى ( النون ) أى إلى الأرض التى طفت على وجه الماء — فإذا هذا الطائر يتلألأ من فوقها فيملأ الـكون نوره ويخرج صوته فيكون بذلك أول دوى فى الوجود (١) .

هذا كل ماتقدمه لنا المصادر المصرية عن العنقاء بالرغم من أن أسطورة العنقاء كانت شائعة ومعروفة خاصة عند كهنة معبد الشمس فى هليوبوليس HeløPolis ( المطرية ) .

وإذا كانت أسطورة العنقاء شائعة فى مصر فلا بد أنها شاعت أيضاً فى فلسطين

---

(١) أحمد بدوى وآخر : هيرودوت فى مصر دار القلم القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٨ .

خاصة عند العبرانيين القدماء لأن فكرهم تأثر كثيراً بالفكر المصرى القديم خاصة فى مجال الأساطير الدينية والأدب ولهذا السبب يميل فريق كبير من دارسى نصوص التوراه إلى الاعتقاد بأن مؤلف أناشيد أيوب كان على دراية بقصة العنقاء خاصة فى الفقرة الثامنة عشرة من الأنشودة التاسعة والعشرين ولذا ترجمت إلى العربية على النحو التالى :

« فقلت أنى فى وكرى أسلم الروح والسمندل(١) أكثر أياماً » .

ويستشهد هؤلاء المفسرون المحدثون على هذه الترجمة بأن المؤلف ذكر فى البيت نفسه كلمة وكر أو عش لأن الأساطير القديمة كانت تربط بشدة بين العنقاء وعشه الخرافى الذى كان يبنيه من أعشاب منتقاه كذلك فان أيوب كان يريد أن يحياه ولا يوجد فى الوجود شىء جاور العنقاء عمراً حتى صار مضرب الأمثال (٢) فى العالم القديم .

ومهما كان الأمر فإن اللفظ الذى ورد فى النص العبرى هو حول أو خول أى أن العبرانيين عرفوا العنقاء بهذا الأسم بالرغم من أن المترجم العربى للتوراه تجنب لسبب أو لآخر كلمة عنقاء وفضل عليها لفظ « سمندل » وهو أحد المرادفات التى أعطاها العرب لهذا اللفظ كما سنرى فيما بعد .

---

(١) وترجمتها بالإنجليزية كما يلى :

« Then I said I shall die in my nest, and as the Phoenix I shall multiply my days; of Cambridge Bible, Job, with notes introduction and Appendix by the Rew. A. B. Davidson, Cambriage University Pres, 1899, Comment on Song XXIX, 18. p. 205.

(٢) يقول المثل الأغريقى القديم « فلان يعيش عمر العنقاء » Phoinikos ete Bioun

أما الأغريق وهم الذين يرجع لهم الفضل فى نقل الأسطورة المصرية من وادى النيل وصياغتها بقالب هلينى ثم تقديمها إلى العالم المثقف فقدترجموا اللفظ المصرى بنو إلى فوينكس phoinix وهى تعنى باليونانية « الألوان الذاهية » نظراً لما عرف عن ريش هذا الطائر العجيب من الوان زاهيه متلألئه ومن الملاحظ أن الأسم الاغريقى(١) يكاد يحمل المعنى الأصلى للاسم المصرى بنو ( البراق — الوهاج ) أما الرومان فقد تقبلوا اللفظ والفكرة الإغريقية ولم يضيفوا عليهما شيئاً وكل ما فعلوه هو أن صاغوا الأسم الاغريقى بالحروف اللاتينيه فأصبح فينكس phoenix وهو الأسم الذى انتقل إلى معظم اللغات الأوربية المعاصرة خاصة تلك التى تولدت من اللاتينيه .

أما بالنسبة لشعوب الشرق والتى يجىء العرب على رأسها فقد لقبوا هذا الطائر بأسماء مختلفة فقد لقبه العرب حينا بالعنقاء وحينا بالسندل(٢) ولكن العنقاء هو الأكثر شيوعاً « وقيل أنها سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق « أو ربما » لأن لها عنق طويل »(١) كما قيل أن عنقها كان مثل عنق البعير(٢) .

---

(١) كذلك فان اللفظ فينكس يعنى بالاغريقية شجرة النخيل ولكن لا علاقة بين اسم الطائر وشجرة النخيل وإن كان البعض يحاولون الربط بين الطائر وبين شجر النخيل التى تكثر فى سوريا وحيث قيل أنه كان يبنى عليها عشه الشهير كذلك ذكرت الأساطير اليونانية لفظ Phoinix كاسم علم لأحد أبناء ملك بلاد اليونان الأسطورية والذى طرده أبوه مغادرها إلى مملكة فثتيا Phthia حيث أصبح معلم لاخيليس الآخيين فى الحروب الطروادية بل أنه لعب دوراً فيها كذلك تذكر الأساطير رجلا آخر بنفس الإسم وهو شقيق قدموس Cadmus الذى خرج ليبحث عن الأميرة يوروبا Europa فاستقر به المقام عند سواحل آسيا الصغرى وأنشأ دولة فينيقيا ومن أسماء الأعلام الشاعر فوينكس أحد الشعراء الهجائين الذين عاشوا فى القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) كذلك خلطوا بينه وبين اسم السامند أو السلاماندر أو السمؤل وهو حيوان النار انظر : الدميرى : حياة الحيوان الكبرى الجزء الثانى ص ٤٠ .

(٣) انظر أبى منظور : لسان العرب الجزء الثانى عشر ( فصل العين حرف القاف ) ص ١٤٩ .

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٧٦ .

كذلك عرفت العنقاء فى عدة لغات من لغات الهند ولغات الشرق الأقصى(١) ويجيء الفرس بعـــد العرب فى اهتمامهم بأمر العنقاء إذ عرفوها باسم السيمرغ Simurgh وهو اسم مركب من كلمتين مرغ ويعنى الطـائر وسى ويعنى طائر كبير لعله النسر كما لقبوه « بالشاه مرفان » أى ملك الطيور « لأنه يقبل كالسحابة الراعده لعظم جسمها وخفيف اجنحتها (٢) .

كذلك ربط الخيال الشعبى العربى بين العنقاء والرخ أو الرخه الذى نسمع عنه فى أقاصيص ألف ليلة وليله ذات الخلفية الثقافية والفكرية الإيرانية وقد انتقلت هذا الأسم إلى الخيال الشعبى الأوروبى عن طريق الرحالة ماركو بولو حيث سمى هذا الطائر بالرخه Rocca (٣) .

هكذا يتبين لنا أن أسطورة العنقاء قـد شغلت خيال كثير من الشعوب القديمة من الشرق ومن الغرب على السواء وثنيون كانوا موحدون فجاءت الأسطورة نتاجا لفـكر الشرق والغرب ولقد نجح العلامة الألمـانى تيرك Turk فى تتبع جذور هذه الأسطورة ولـكن بايجاز شديد .

وتتفق الأساطير فى جوهر واحد بالرغم من أن كل شعب اختلف فى التفاصيل وهذا

---

(١) انظر ناجى القيسى : فريد الدين العطار وكتابه منطق الطير ( رسالة دكتوراه قدمت لـكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٥ ( غير منشور ) ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) انظر ناجى القيسى المرجع السابق ص ٣١٨ .

(٣) ليس من المستبعد أن تكون الأسطورة قد توغلت إلى قلب أفريقيا السوداء عن طريق العرب لأنى أذكر أنى قرأت أسطورة من غرب أفريقية ترجمها الأديب والدبلوماسى السودانى جمال محمد أحمد ونشرتها جريدة الجمهورية فى أحد أيام عام ٦٩ تتحدث عن طائر غريب تتفق أوصافه والعنقاء أو الرخ .

الجوهر أن العنقاء طائر غريب القدم والمولد يقدم طائراً من قلب الجزيرة العربية (١) عندما تكتمل دورة زمنية معينة اختلف الروائيون في احتسابها فمن قائل أن ظهور العنقاء يجيء كل خمسماية عام ومن قائل أنه يجيء عند انتهاء دورة الشمس كما حسبها المصريون الذين عرفوها بدورة سوثيس Sohis ويقدرونها بـ ١٤٦١ سنة ومهما اختلفت الروايات فان غالبيتها تكاد تتفق أن العنقاء يجى كل خمسماية عام.

ولقد سجل لنا هيرودوت وصفا لشكل هذا الطائر يعتبر جوهر الفكرة الغربية عن هذا الطائر وذلك عندما زار مصر وشاهد رسما لهذا الطائر في معبد هليوبوليس ومن الغريب أن هيرودوت كان مقتنعا بأن العنقاء كانت موجودة فعلا وليست أسطورية لأنه روى قصتها في معرض حديثه عن طيور القطر المصرى ، يقول هيرودوت :

« وهناك طائر آخر مقدس يسمى بالفوينكس لم أره إلا مصورا إذ أنه لا يزور البلاد إلا فيما ندر، يزورها كل ٥٠٠ عام على حد قول أهل هليوبوليس وذلك عندما يموت أبوه وإذا كان يشبه رسمه فهكذا يكون حجمه وشكله : بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر وهو قريب الشبه جداً من النسر في هيئته وحجمه ويرون أنه في مهارة يدبر الأمر التالي — ولكنني لا أصدق ما يقولون: يرون أنه يغادر بلاد العرب حاملا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه في هذا المعبد وذلك بعد أن يغطيه بطبقة من المر ولكي ينقله يقوم بما يلي: يصنع أولا من المر بيضة بالقدر الذي يستطيع حمله

(1) w. H. Roscher, Aus Furhliches Iexicon der griechischer und Romischen Mythologie, 1902—1909 111, 2, col. 3450 — 3472.

بالرغم من العرب مالوا فيما بعد إلى جعل موطنه العنقاء غربا في جزر المحيط وقيل أن موطنه هو جزيرة سومطرة أو أرض الصين شرقا .

ثم يحاول حملها فاذا انتهى من محاولته يجوف البيضة ويضع أباه فيها وبعدئذ يغطى بالمر ثانية المكان الذى جوفه من البيضه وأدخل فيه أباه بحيث أن يظل ثقل البيضه واحـدا وبعد أن يغطى أباه يحمله إلى معبد الشمس فى مصر ، ذلك ما يفعله هذا الطائر حسب ادعائهم» (١).

لقد مر هيرودوت مروراً سريعا على هـذه الأسطورة ولم يذكر بالتفصيل فكرة هامة وهى الطريقة التى يموت بها العنقاء ، تقول الروايات أن العنقاء عندما تحس بدنو اجلها تجمع أعشابا من طيب النبات ثم ترقد عليها وتشعل فيها النار وتظل ساكنة حتى تحترق تماما مع العش وما تكاد النار تخبوا حتى — يتخلق من الرماد مخلوق عنقاء صغير سرعان ما ينمو ويتحول إلى عنقاء كبير يجمع رفات أبيه ويكون منها بيضه كبيرة يحملها بين مخلبيه ويطير قاصداً مصر حيث معبد رب الشمس فى هليوبوليس ( مدينة الشمس ) وحيث يترك رفات ابيه عندئذ تقوم كهنة المعبد بالصلاة عليه وإقامة الطقوس الجنائزية وشعائر الدفن .

وهناك رواية أخرى تقول أن العنقاء الكهل يطير إلى مصر حيث يموت هناك ويتخلق من جثته الطائر الجديد الذى يترك رفات أبيه ويطير عائداً من حيث آتى ، وخلاصة القول أن طائر العنقاء كان مقرباً عن رع رب الشمس ولذا أعطى تقديساً وتبجيلا يفوق أى تبجيل منح لأى نوع آخر من الطير أو الحيوان كما تذكر النقوش الهيروغليفية .

ويؤكد الكاتب المصرى حور أبوللون Hor apollon (٢) فى كتابه الشهير

---

(١) هيرودت الكتاب الثانى فقرة ٧٣ ، انظر أحمد بدوى ؛ محمد صقر خفاجه المرجع السابق ص ١٧٨.

(1) Pouly - Wissowa, Sab Horapolloa, vol VIII, col. 2313 – 2319 ( by Roeder ).

«رموز اللغة الهيروغليفية» Hieroglyphica وجود العنقاء فى فكر المصريين فيقول «وعندما يريدون (أى المصريون) أن يرمزوا إلى نفس عمرت طويلا أو إلى فيضان فأنهم يرسمون طائر العنقاء وهم يرمزون به إلى النفس المعمرة لأنه أطول المخلوقات عمراً فى الوجود ويرمزون به إلى الفيضان لأن طائر العنقاء رمز الشمس التى لاشىء يفوقها حجما فى الوجود(١)» ويستطرد المؤلف المصرى فى الفصل الذى يليه فيقول «لكى يرمزوا الى رجل عاد الى وطنه بعد غيبة طويلة فى بلاد أجنبية فأنهم يرسمون طائر العنقاء لأن هذا المخلوق اذا ماأتاه أجله بعد خمسماية عام عاد على الفور الى مصر وبعد أن يوفى حق الدنيا فى مصر (أى يموت) فإنه يلقى شعائر جنائزية سرية، وما يؤديه المصريون لسائر الحيوانات يؤدونه للعنقاء اذ يقول المصريون عنه أنه أكثر تذوقا للشمس من أى طائر آخر والنيل يفيض لهم بفعل حرارة هذا الإله (أى الشمس) وقصصنا عليك أمر ذلك منذ وهلة (٢).

كما يتعرض الكاتب المصرى فى مناسبة ثالثة للعنقاء فى الفكر المصرى فيقول «وعندما يريدون أن يرمزوا الى دوران الدهر فأنهم يرسمون طائر العنقاء وذلك أن ولادته تجىء نتيجة اكتمال دورة الأحوال (الدهر) وهو يولد على النحو التالى:

عندما يحس طائر العنقاء بدنو أجله فإنه يسقط نفسه على الأرض — فتحدث فى جسده فجوة نتيجة لهذا السقوط ومن دمه (الايخور Ichor) الذى يتدفق من جراحه يتخلق طائر آخر وماأن ينبت لهذا الطائر جناحان حتى يلفظ أبوه أنفاسه

---

(1) Hor - Apollon : Hieroglyphica, Book I, chapter 34.

(2) Op. cit. Book 1, chapter 35.

الأخيرة عند مطلع الشمس وبعد موت والده يقفل الابن عائداً إلى وطنه الأصلى بينما يتولى الكهنة المصريون دفن العنقاء الراحل »(١) .

ويلاحظ القارىء اختلاف رواية المؤلف المصرى عن باقى الروايات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بالطريقة التى يموت بها الطائر العجوز وفيما إذا كان يطير إلى مصر حياً أم محمولا بواسطة العنقاء الجديد ، ولكن ذلك أمر طبيعى فى معالجة أسطورة خرافية تركت حقلاخصباً لخيال الكتاب والشعراء من كل جنس وعصر وثقافة هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فإن عمل حور ابوللون — الذى لا يقل أهمية عن مؤلف موطنه مانيتون فى التاريخ المصرى — لم تصل إلينا إلا فى شكل ترجمة يونانية ركيكة قام بها كاتب اغريقى مصرى أو مصرى متأغرق بعد قرنين على الأقل من الوقت الذى جمع فيه حور ابوللون ملاحظاته باللغة المصرية القديمة(٢) .

إذ ليس من الغريب أو المستغرب أن تستهوى أسطورة مثل هذا خيال الشعراء والكتاب والفلاسفة الاغريق والرومان فتناولها كل واحد بالطريقة الخاصة به من أجل القصد الخاص الذى يبغيه ، فمثلا ذكر الشاعر التعليمى هسيودوس Hesiod « أن العنقاء تعيش عمر الغراب Raven تسع مرات(٣) ، كما أن أسم فوينكس كان شائعاً لدرجة أنه كان من بين اسماء الاعلام وأبطال الاغريق الأسطوريين .

ومن أشهر شعراء العصر الأوغسطى الذين تناولو هذه الأسورة الشاعر أوفيد ، إذ تناول الأسطورة ونسج منها أبياتاً رقيقة فى مؤلفه الشهير » مسخ

---

(1) Op. cit. Book II; Chapter 47.

(٢) لقد اعتمدت فى الترجمة على النص اليونانى الواردة فى الكتاب التالى :

A. S. Cory, The hieroglyphes of Hilous London (1840).

(1) cf. Loeb edition of Hes,od, p 74. Frogm. no163

المخلوقات « Metamor phoses (١) وفى قصيدته Amores كما كتب الأديب الرومانى ستاتيوس سيلفيوس Statius Silvius (٢) عن فكرة الخلود الأزلى فى أسطورة العنقاء الذى لا تؤثر فيه السنون أو الزمن أما الفيلسوف والأديب الرومانى سينيكا فقد وجد فى أسطورة العنقاء ضالته المنشودة كمثل حي لتعليم الرواقية التى تنادى بالالتزام لنظام معين لا يمكن الخروج عليه (٣)، كما كان من الطبيعى أن يتوقف بلينى الأكبر طويلا عند العنقاء فى مؤلفه الشهير عن التاريخ الطبيعى Histotia Naturalis ويتحدث عن الأعشاب الغريبة التى ينتقيها العنقاء ليبنى منها عشه خاصة ما كان منها ذى رائحة وعبير طيب يملأ الجو شذاه كذلك تناول بلينى عادات العنقاء وسلوكه وطباعه وكيفية تولد الطائر الجديد حيا من الطائر الميت (٤) أما عن المؤرخ تاكيتوس فيسجل لنا ما يثبت كيف أن هذه الأسطورة ظلت حية فى فى وجدان العالم خاصة فى الأوقات التى يحتاج فيها نفسياً إلى الإسقاط السيكلوجى وخداع النفس من أجل تبرير الأمانى وأضغاث الأحلام إذ ذكر أن شائعة عمت العالم عام ٣٤ ميلادية بأن طائر العنقاء قد ظهر فى مصر معلنا نهاية دهر وبداية دهر جديد وأن الشائعات تقول أن هذا الطائر ذهب إلى معبد الشمس فى هليوبوليس حيث ترك جثة العنقاء القديم وطار من حيث اتى (٥) وفى نهاية العصر الوثنى الرومانى

---

(1) Mitamor phoses, XV, 392 — 407.

وقد قام الدكتور ثروت عكاشه بترجمة هذا العمل عن الانجليزية وقد راجع الترجمة الدكتور مجدى وهبة ، كذلك أنظر : Amor II, VI, 54.

(2) Stat. Silv : II, IV, 36.

(3) Seneca, Epistulae XI ii, 1.

(4) Pliny, Historia Naturalis X, 3—5.

(5) Tocitus, Annales, VI, 28.

نجد الشاعر كلوديانوس(١) يكرس قصيدة بأكملها للعنقاء ظلت المصدر الأول لكتاب وفلاسفة الرومان المسيحين بعد أندثار الوثنية كذلك تناولها شعراء وكتاب كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال اوريليوس فكتور(٢) .

وبالرغم من انتصار المسيحية على الوثنية فى أوروبا الا أن شعراء الرومان المسيحيين وقفوا مبهورين أمام التراث الثقافى الوثنى خاصة أسطورة العنقاء ولعلها ذكرتهم بالحنين الرومانى الدينى فجمال العش الأخضر بأعشابه وزهوره حيث كان يسكن العنقاء فوق قمم النخيل ذات الأكام ذكرتهم بجنات عدن التى وعد بها المؤمنون ، كما أن فكرة موت الطائرة وقيامته لاقت صدى عاطفيا محببا فى نفوس المسيحيين الأول لأنه فى ذلك يشبههم بالمسيح حين صلب ثم قام ، أضف إلى ذلك أن رهبان الأديرة النائية والنساك وجدوا اقرابه فى ذلك الطائر الذى يقض عمره وحيداً بلا قرينة ولا والد ولا ولد ، ورأيت ألا يفوتنى أن أنقل لقارىء العربية الأول مرة الجزء الأخير من أشهر قصيدة كتبها رومانى مسيحى أسمه لاكتانتيوس Lactantius فى مديح العنقاء سماها عن طائر العنقاء De avc P h o c n i ce ولاكتايتيوس هذا كان استاذاً للخطابة والبلاغه فى نيكوميديا — أحدى مقاطعات آسيا الصغرى — فى القرن الرابع بعد الميلاد ثم استهواه الدين المسيحى فى فجره ما شهر مسيحيته ثم دعاه الامبراطور قسطنطين ليشرف على تعليم الامير كرسبوس crisPus لقد تغنت قصيده لاكتانتيوس بجمال العنقاء وبسره الإلهى المبارك

(1) Claudianus, De Consultatu Stilichonis.
(2) Autelius Victor, De Caesaibus 4,
(3) H. J. Rose, A Hand book of latcr Latin Literature, Methuen, Gompany, 3rd edition p 1954. p 481.

بنغمة حارة أشبه بصلاة مسيحي متنسك ولكنها بالرغم من هذا تحمل فى حشاياها عمق الثقافة اليونانية الرومانية الوثنية وسموها وانسانيتها فجاءت مزيجا رائعاً بين تلك الثقافة وبين الدراما العاطفية والزهد والتجرد عن الدنيا وهو ما بشر به المسيح .

وقد آثرت أن انقل النص اللاتينى الفعلى مقرونا بترجمتى العربيــة حتى يشاركنى القارىء الاستماع بجمال القصيدة ذاتها :

تقول القصيدة «أن ضخامة ذلك الطائر الذى يجيء من بلاد العرب لا يمكن أن تقارن بأى مخلوق آخر حيوان كان أم طيرا وهو على الرغم من ذلك لا يبــدو مترهلا كما تبدو الطيور ذوات الأجسام الضخمة بسبب ثقل وزنها ، بل أنه خفيف رشيق تملاؤه مظاهر الملوك .

هكذا يبدو لاعين الناس وعندما يقـــدم تخرج مصر عن بكرة أبيها لتستقبل المعجزة ولكى تحى الجماهير ( هذا ) الطير النادر بالتهليل ، وفى الحال ينقشون على الرخام المقدس شكله ويسجلون بعنوان جديد التاريخ والحدث .

وتتجمع حوله الطير من كل جنس وليس فى مخيله أى منها رهبة أو خوف وتشهق طائرة إلى العلى تحيطها جوقه ويتبعها الجمع فرحة بفريضة التقوى ولكن عندما تصل إلى الأثير الأعلى ، تعود فى الحال إدراجها وتكتفى بمتابعته من امكنتها ، آه ياطائر البشرى والخاتمـــة السعيدة ، يا من جعله يلد نفسه من نفسه وسواء كان انثى أم لا هذا ولا ذاك أو حتى كليهما معا فهو طائر سعيد لأنه يعبأ بشهوة الجماع .

فالموت عنده هو الحب وشهوته الوحيدة تمكن فى الموت ولذا نقبل أن يولد يشتهى الموت ... أنه نفسه حفيد نفسه لأنه الوالد والوريث . وهو الذى يرعى نفسه بنفسه والمربى الأبدى لنفسه ولكن الأمور لا تدوم لأنه كان نفسه وليست نفسه لأنه يجنى بالموت الكريم حياة خالدة » .

Magnitiem terris Arabum quae gignitur ules
Vix aequare potest, Seu fera seu sit avis,

Non tamen est tarda, ut Volucres quae corpore
mogno incessus pigroe per grave pondus habent,

Sed levis ac velox, regali plena decore :
talis in adsdectu se tenet usque hominum.

Huc venit Aegyptus tanti ad miracula visus
et raram valucrem turba salutat ovans.

Protinus exsculpunt sacrato in marmore formam
et titulo signat remque diemque novo.

Contrahit in coetum sese genus omne
valantum, nec proedae memor est ulla nec ulla
metus.

Alituum stipata choro volat illr der altum
turdaque prosequitur munere laeta pio,

Sed postquam puri pervenit ad aetheris auras,
mox redit, illa suis conditur inde locis.

A fortunatae sortis finisque volucrem,
cui de se nasci praestit ipse deus.

Femina vel mas haec, seu reutrum, seu sit utr-
umque, felix quae veueris foedra nulla Colit :

Mors illi venus est, Sola est in morte valuptas :
ut possit nasci , appetit ante mori

Ipsa sibi proles, suus pates et suus heres,
nutrix ipsa sui, semper olumna sibi

Ipsa quidem, sed non eadem quia et ipsa nec
ipsa est, aeternam vitam mortis adepta bono.

---

1 — of. A.M. Duff, minor Latin poets, Loeb Classical Library, 1935. pp 647 ff.

تلك هي قصيدة لاكتانتيوس — شيشيرون المسيحية — كما لقبه معاصروه[1] والتي أصبحت نموذجا إحتذاه كل كاتب استهواه هذا الموضوع فنسج على منوالها قصائد متعددة ولقد كانت الأسطورة محـل عناية خاصة من جانب الشعراء الغنائيين[2] Lyricist الذي تناولوها من جوانب متعددة فمنهم من كتب عن تغريد العنقاء وعن الأناشيد التي يشدو بها عندما يقبل وعند ظهوره كلما أكتمل ألف عام وعودته إلى أكام النخيل ذوات الطلع النضير في شوطئ سوريا حيث كان يبنى عشة الغريب الجميل وعن مأساه موته وبعثة من جديد ، في مزيج شيق من الوثنية وتراثها والمسيحية وعناصرها جديرة بالدراسة والترجمة .

وإذا ما تركنا الغرب الأوروبي وإنتقلنا إلى الشرق مهد الأسطورة نفسها وجدنا شعوبة أيضا تعالج الأسطورة ولكن بطريقتها الخاصة ويجئ على أرس هذه الشعوب العرب لقد عرف عرب ماقبل الإسلام العنقاء وذكروها في أمثالهم العديده ولكن لا نسمع عنهم أي تفسيرات لا معقولية لطائر العنقاء وربما لأن العرب شعب فقير في صنع الخرافات والاساطير أو لأن العقلية العربية تميل إلى التجريد المطلق « فمثلا إذا خبرت العرب عن هلاك شئ بطلانة قالت حلقت به في الجو عنقاء مغرب »[3]

ويقول أبو منظور لسان العرب[4] « والعنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب وقيل والعنقاء المغرب كلمة لا أصل لها ، يقال أنها طائر عظيم لاترى إلا في الدهور ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا[5] ومغربه كقولهم .

---

1 — H. J. Rose, op. cit d. 481.
2 — cf A.M. Duff, op. cit pp.643w647.

(٣) الحيوان للجاحظ جزء ٧ ص ١٢٠ .

(٤) لسان العرب لابى منظهور الجزء الثاني عشر ( فصل العين حرف القاف ص ١٤٩ .

(٥) كذلك ذكراً و منظهور في لسان العرب أن العنقاء لقب رجل من العرب أسمة ثعلبة ابن عمرو والعنقاء أيضا أسم ملك أنظر المرجع السابق .

ولولا سليمان الخليفة حلقت　　به من يد الحجاج عنقاء مغرب

وقيل إنها سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق وقال كراع العنقاء فيما يزعمون طائر يسكون عند مغرب الشمس وقال الزجاج العنقا ء المغرب طائر لم يره أحد وقيل فى قوله تعـــالى ــ طيرا أبابيل هى عنقاء مغربه أبو عبيد ــ من أمثال العرب طارت به العنقاء والمغرب ولم يفسر .

أما الشعراء العرب فقد ذكرو العناق فى قصائدهم على أنها طائر خرافى كقول أبي نواس فى هجاء أحد الناس .

وما خبره إلا كعنقاء مغرب　　تصور فى بسط السلوك وفى المثل (١)

كذلك يصورونها بأنها طائر ضخم لايستطيع صيدة كقول المعروى فى مطلع قصيدته « سقط الزند » :

أرى العنقاء تـكبر أن تصادا　　فعاند من تطيق له عنادا

وبأنه طائر عقيم لايرضع كقولهم .

مهدته العناق وهى عقيم　　رب مهد يـكون فوق الهلال (٢)

والحق يقال أن الخيال العربى لم يصبح خصبا إلا فى الحقل الدينى حيث فتح باب الاجتهاد أمام المفسرين والباحثين فى قصص الأنبياء حتى أن بعض المفسرين ذكروا اسم العنقاء فى تفسير قوله تعالى «وعادا وثمود وأصحاب الرس» (٣) وفى قوله تعالى «كانت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود »(٤) ويقول ابو منظور فى لسان العرب « قال ابن الطلبي كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له رمخ مصعده فى السماء ميل فـكان ينتابه طائره كأعظم مايـكون لها عنق طويل من أحسن الطير فيها من كل لون وكانت تقع منقضة فـكانت تنقض على

(١) حياة الحيوان للجاحظ جزء ٣ .
(٢) المرجع نفسه جزء ٧ .
(٣) سورة الفرقان آية ٣٨ .
(٤) سورة قاف آية ١٢ .

الطير فتأكلها عافجت وانقضت علي صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب بما أخذته ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة فدعا عليها فسلط الله عليه آفة فهلكت فضربتها العرب مثلا فى إشعارها ويقال ألوت به العنقاء المغرب وطارت به العنقاء(١) .

كذلك تحدثت الأساطير(٢) الإسلامية عن العنقاء خاصة فى معرض ذكرها للنبي سليمان حيث اشتهر بتحكمه فى المخلوقات وقوى الطبيعة وتسيره لها حتى قيل أنه يفهم لغة الطير والحيوان ومن الواضح العرب اتبعوا قصص الأنبياء التراث العبرانى وأخذوا منه الكثير خاصة أن معظم أنبياء الله عبرانين وكان من الطبيعى أن تحتل العنقاء مكانة عالية فى مجلس الطير الذى كان يرأسه النبي سليمان بل وأن يكون لها حكاية معه رواها لنا النيسابورى الثعلبي(٣) كما رواها أيضا النويرى(٤) وملخصها تحدى العنقاء للقدر أمام سليمان حين قالت الإيمان لله ولكن المشيئة للعباد فيضعها سليمان أمام حكم من أحكام القدر وهى أن طفلا ولد بالمغرب وجارية بالمشرق وكل منهما ابن ملك وأنهما سيكبران ويجتمعان فى أمنع الموانع وتحمل الجارية من الفتى سفاحا وترد العنقاء مغرورة بقوتها بأنها ستمنع الفتى عن الفتاه فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة « ومرت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عظما ووجهها وجه الإنسان ويدها وأصابعها(٥) كذلك فحلقت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا وعرفت مكان الجارية وخطفتها وحملتها حيث تسكن فوق قمة شجرة عالية تلامس

---

(١) أنظر لسان العرب المكان السابق.

(٢) أنظر مثلا شرح المقامات للشويشى مطبعة بولاق ١٩٠٠ جـ٢ ص٤٠٦ . كذلك أنظر دائرة المعارف الإسلامية تحت سيمرغ .

(٣) النيسابورى الثعلبي: قصص الأنبياء مكتبة الجمهورية المصرية ص٣٢٠ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى : نهاية الأرب الجزء الرابع عشر مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٣ ص٨٦ — ٨٧ .

(٥) نهاية الأرب الجزء الرابع عشر ص٩٢ .

غصونها النجوم والشجرة فوق جبل شاهق عال يتوسط جزيرة فى البحر وأخذت تربيتها حتى كبرت ولكن الريح تسوق سفينة الفتى والذى كان أصبح ملكا إلى هذه الجزيرة ويخاطب الفتاة ثم يصل إليها بطريقة غريبة تذكرنا بما ذكره هيرودوت نقلا عن ماسمعه من كهنة مصر وهى أن الأمير « بقربطن فرس من دوابه وأخرج ما فيه وجوفه وأقبره وأطينه وأدخل فى جوفه وتحت إلحاح الجارية أحضرت العنقاء جثة الفرس إلى العش ونال الفتى من الفتاة وخبرت الريح سليمان بما جرى فطلب من العنقاء إحضار الجارية وتحت إلحاح الجارية ومرة أخرى سمحت العنقاء لها بأن تدخل فى بطن الفرس حيث يرقد الأمير وتحملها إلى مجلس سليمان وأمام الطير تنكشف الحقيقة فتدهش العنقاء وتتيه فى السماء نحو المغرب حيث اختفت فى بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت ألا ينظر الطير فى وجهها أبداً استحياء»(١) .

كذلك استوحى عدد كبير من كتاب العرب معلوماتهم من التراث الفارسى خاصة فيما يتعلق بالعنقاء ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر الدميرى(٢) وماقاله عن العنقاء حيث خلط بينه وبين السندل فحينا يذكره بأنه طائر غريب بأرض الصين يستلذ بالنار ولا يغسل جلده إلا بها — وحينا يذكره بأنه حيوان دون الثعلب لا يتأثر بالنار ولا تؤثر فيه ومرة ثالثة يقول أنه طائر بأرض الهند يبيض ويفرخ فيها ويعمل من ريشه مناديل إذا — اتسخت ألقى بها فى النار فتصبح نظيفة ويقول أنه سمع من شيخه عبداللطيف ابن يوسف البغدادى أنه قدم للملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب قطعه سندل عرض ذراع فى طول ذراعين ألقيت فى النار فلم تؤثر فيها .

---

(١) المرجع السابق فى نفس المكان .
(٢) حياة الحيوان الكبرى الجزء الثانى ص ١٧٧ — ١٧٩ .

كذلك يروى القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات(١) «أن العنقـــاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقه تخطف الفيل كما تخطف الحدأه» وذكر أنها نفيت إلى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء وهى جزيرة لا يصل إليها أحد من الناس وفيها تعيش حيوانات كثيرة كلها تحت طاعة العنقاء وذكر أن العنقاء كانت تترك ما يتبقى من صيدها لباقى الحيوانات حيث يشاهدها من موضعه العالى وهى تأكل بقاياه وذكر أنه عنـــد طيرانه يحدث ريشه صوتا كصوت هجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح .

من الواضح أن الأسطورة مرت شرقا حتى وصلت إلى الهند إذ ورد اسم العنقاء فى عدد من لغاتها القديمة ولكننا لا نعلم الكثير نظرا لصعوبة الاطلاع على نصوص هذه اللغات ومهما كانت فلن تبلغ الأسطورة فى الهند ما بلغته فى فارس الإسلامية حيث تناولوها من وجهه نظر صوفية إسلامية بحته وتظهرها الأساطير الإيرانية كرمز لشىء عبقرى طيب أمين أو كرمز للشرير الداهيـــة والذى يخلص البشرية من آثامه بطل مخلص(٢) ومن يطلع على الأسطورة الإيرانية لا يجد فرقا كبيرا بينها وبين مارواه المفسرون والكتاب العرب ويقال إن أخبار العنقاء فى الكتب العربية مستوحاة من فارس الإسلامية(٣) .

ومن أشهر الشعراء المسلمين المتصوفين الذين عالجوا العنقـاء من زاوية صوفيه بحتة الشاعر الإيرانى فريد الدين العطار(١١٤١ — ١٢١٠ ميلادية) وهو واحد من

---

(١) الجزء الثانى ص ٢٧٩ تحت عنقاء .
(٢) انظر ناجى القيسى المرجع السابق ص ٣١٧ - ٣١٨ .
(٣) ناجى القيسى المرجع السابق ٣١٨ — ٣٢٠ .

أ كبر ثلاثه شعراء متصوفة فى تاريخ الأدب الفارسى بعد الإسلام(١) لقد تناول فريد الدين العطار فى كتاب أسماه بمنطق الطير فكرة سبق للامام الغزالى ( المتوفى عام ١١١١ ميلادية ) أن عالجها فى بحث أسماه « رسالة الطير » بل أن الشاعر الفارسى تأثر بها تأثيرا لا يخفى على الدارس وهذه الفكرة هى أن الطيور على اختلاف أشكالها تجتمع لتبحث عن مليك لها وتجتمع على اختيار العنقاء وتخرج وفود الطير للبحث عنها فى رحلة كلها مهالك وأخيرا يصل عدد قليل إلى حضرة العنقاء ويروون قصتهم راجين منه أن يقبل قرارهم بأن يكون ملكا عليهم فيسخر العنقاء منهم قائلا لهم بأنه ملك الطيور سواء شاءوا أم أبوا وأنهم اتبعوا أنفسهم لعمل شىء هو قائم فعلا — ويستطرد ديوان العطار فيقول إن الطيور قد حارت فى العودة حتى تمنوا أن يموتوا عن آخرهم ولكن العنقاء ولا الطيور يسمح لهم بالإقامة عنده(٢) .

ويرى الدارسون لفكرة الغزالى والعطار أن اختيار العنقاء رمزا لفكرة الحق(٣) الذى هو غاية الباحثين كما ترمز القصة يرجع إلى نظرة الناس إلى هذا الطائر الذى هو بعيد عن الناس فلا مكانه معروف ولا وصفه على الحقيقة معروف فهو موجود حسا وفكرا وغير موجود مادة وفى هذا يمكن منطق فلاسفة المسلمين فى إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وفى هذا اختلاف كبير عن فكرة متصوفة المسيحيين الأولين .

---

(١) أنظر المرجع السابق كذلك أنظر : د. عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين العطار القاهرة ١٩٤٥ .

(٢) أنظر ناجى القيسى المرجع السابق ص ٣٠٢ — ٣٠٤ .

(٣) من الواضح أن العطار رمز للحق بالعنقاء وهو غاية الغايات كما رمز بالطيور الباحثة عن العنقاء . إلى الصوفية وطلاب الفضيلة والمقصود بالقصة أن الحق موجود سواء بحث عنه العلماء أم لا والذين يبحثون عنه سوف ينتهى أمرهم إلى حضرته كما أواهم العنقاء .